خصائص الأخلاق في الإسلام

رؤية مقارنة مع الفلسفات الوضعية

أ. د. محمد السيّد الجليند (*)

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

تمهيد

الإنسان أخلاقيٌّ بالفطرة:

أجمع المثاليّون من علماء الأخلاق ـ ومنهم فلاسفة الإسلام ـ على أنَّ الله تعالى خلق الإنسان وزوّده بغريزةٍ أخلاقيةٍ تسمّى البصيرة، تساعد الإنسان على التفرقة بين الخير والشّرّ في الأفعال، والحقّ والباطل في الأقوال، وتعمل على تحصيل النافع للإنسان ودفع الضار عنه، كما يستطيع بها الإنسان أنْ يُصدر أحكاماً يقيّم بها أنواع السُّلوك المختلفة، فيميّز بها بين السُّلوك المنحرف والسُّلوك السّوي المعتدل.

وهذه الغريزة هي الفطرة التي وُلد عليها الإنسان، وبها يواجه عملية الاختيار بين البدائل أو الانتقاء، فيحصل على ما يلائم الطبع، ويبتعد عمّا ينفّره

(*) أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية، دار العلوم / جامعة القاهرة.

عنه. ونور هذه البصيرة لا ينطفئ أبداً، لكنّه قد يغيب أو يخبو عند فترات ضعف الضمير أو غيبته، وسرعان ما يشتعل نورها فيضيء للإنسان جنبات الحياة، وذلك عند إحساسه بما يسمّى بوخزات الضّمير، أو يثور عند إحساس الشُّعور بالألم والندم عندما يرتكب بعض الجرائم أو الأفعال المخلّة بالشرف والأمانة. ومهما بلغت درجة انحراف الإنسان في سلوكه فإنّه يجد نفسه مضطراً في بعض الأحيان إِلَى الاعتراف بحبّ الخير وتقديس الفضيلة في ذاتها، وإن أعوزته الشجاعة إِلَى الارتفاع إِلَى مستواها وممارسة السُّلوك الفاضل، ومِمَّا لا شك فيه أَنَّ رؤية أيّ سلوك هابط أمامنا يثير لدينا نوعاً من الاشمئزاز والنُّفور، وسرعان ما نجد أنفسنا نصدر أحكاماً تلقائية بإدانة هذا السُّلوك الهابط واستحقاق صاحبه العقاب.

ومن آثار هذه البصيرة الأخلاقية أَنَّنا نكره في أنفسنا عيوبنا الذاتية، وإذا كنّا نبذل كثيراً من الجهد في تصحيح أخطائنا فإننا سرعان ما نتلمس المعاذير لتبرئة أنفسنا مِمَّا قد نحكم عليه بأنّه خطأٌ أو يعتقد الآخرون أَنَّه سلوكٌ سيِّء هابط. كما قد نشعر أحياناً بنوع من الخجل والخزي عندما تعرف الجماعة التي يعيش معها الإنسان أَنَّه قد ارتكب جريمة أو خدش وجه الفضيلة بسلوكه الهابط، وهذا الشُّعور مصدره الإحساس الداخلي الَّذِي يستمدُّ أساساً من نور هذه البصيرة الفطرية التي زوَّد الله الإنسان بها.

الفطرة والوحي:

والقرآن قد اعتمد على هذه الفطرة في كثيرٍ من الآيات، وتأسس خطابه القرآني على هذا الشُّعور العام، وذلك الإحساس الذاتي القادر على التمييز بين أنماط السُّلوك المختلفة، ومعرفة الخير من الشّر والعدل من الظلم. كما اعتبره أساساً في إقامة النّظام الخلقي للفرد والجماعة، واعتمد عليه في عرض القضايا

العامّة على المسلمين، فالرسول ﷺ يأمر المؤمنين بما سبق أنْ أمر به جميع الرُّسل السابقين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الاعراف: ١٥٧]، و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأعراف]، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، إلَى غير ذلك من الآيات التي تخاطب المسلم من جانبه الوجداني الَّذي ينبع من الضمير الأخلاقي في التمييز بين الخير والشر.

وإنّ هذا الشُّعور عامٌّ ومشتركٌ بين جميع الناس، فإنَّ القرآن يقدّم لنا الواجبات الأساسية التي ترتكز على هذه الفطرة الغريزية على أنَّها دعوة كلّ الرسل السابقين ومهمتهم وسبيلهم المستقيم. فلقد أمر الله كلّ الرسل بإقامة ميزان العدل والقسط: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وأُمروا أنْ يكسبوا رزقهم من الحلال ويعملوا صالحاً.

وليس من الصدفة العارضة أنَّ محمداً ﷺ يدعو إلَى ما سبق أنَّ دعا إليه جميع الرسل السابقين، ولكن هذا يبيّن لنا أنَّ هناك قدراً مشتركاً بين دعوة كُلّ الرسل، وهذا القدر يتمثّل أساساً في المبادئ الفطرية العامة التي لا تخضع لعوامل البيئة والثقافة، فالرسل جميعاً أمروا بالأكل من الطيّب وفعل الخيرات، والأمر بالمعروف والنهي عن الفحشاء والمنكر، والقرآن لا ينقل لنا مبدأ أخلاقياً دعا إليه هذا الرسول أو ذاك إلَّا ويشير إليه في موضع آخر على أنَّه واجب تلتزم به الجماعة الإسلامية؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ

سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء: ٢٦]، ويقول في مخاطبة الرسول ﷺ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولو نظرنا في المبادئ الأخلاقية الكبرى التي جاءت بها التوراة والإنجيل وقارناها بما جاء في القرآن من ذلك فإنّنا نجد أنَّ القواعد الأساسية الأخلاقية التي دعا إليها جميع الأنبياء واحدة، كالعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإحسان إِلَى الغير والصدق والأمانة وغير ذلك من الأُمور التي تمثّل دعائم البناء الأخلاقي في دعوة كّل رسول[1]، وهي كلها أُمور تميل إليها الفطرة السليمة وتسعى إِلَى تحقيقها؛ لأنّها تلائم ما طُبعت عليه أزلاً من معرفة الحقّ ومحبّة الخير.

والله تعالى قد منح الإنسان هذه الفطرة ليتمكن بها من تحقيق مصالحه وما فيه من نفعه ودفع ما يضرُّه، وأعانه على ذلك بأسبابٍ ظاهرة وباطنة، ومهّد له الطريق ثُمّ أرسل رسله وأنزل كتبه لبيان ما غمض وتفصيل ما أجمل، وأزال عنه كُلّ علّة يحتج بها على الله؛ لأنّ كثيراً ممّا ينفع الإنسان أو يضرُّه لا علم له بتفصيله إِلَّا عن طريق الوحي والرسل، فهناك إذن عاملان يكمّل أحدهما الآخر: عامل الفطرة وعامل الشريعة.

والعامل الأوّل (الفطرة) هو الَّذِي يجعل القلب منفتحاً لتقبّل العامل الثاني؛ لأنّ ذلك مقتضاها. فالله قد فطر عباده على معرفة كُلّ حقّ ومحبّة الخير، وأوّل ذلك معرفته سبحانه ومحبته وتأليهه والإقرار بربوبيته؛ لأنّ معرفته سبحانه بداية كُلّ خير وحقّ، وأصلٌ لذلك. قال ﷺ: «**كُلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء**»[2]. وفي صحيح مسلم: «**وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أنْ يشركوا ما لم أنزل به سلطاناً**»[3].

فالرسول ﷺ يخبر أنَّ كلّ نفس مفطورة على الإقرار لله بالأُلوهية ومحبته وعبادته، وأنّ هذه الفطرة عامّة في كُلّ من يخضع لله بالعبودية. والعبودية هنا صفة كونية تعمّ الجميع: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. والفطرة إذا فسدت أو تحوّلت عن الحقّ أو ضلّت سبيلها عن معرفة الخير فإنّ ذلك يكون لعارضٍ طارئ عليها من خارج ذاتها كما أشار الرسول ﷺ «**فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» وكما أخبر سبحانه: «**أتتهم الشياطين فاجتالتهم**». وهذا يتمثّل في عالم الشهوة والغفلة أو الجهل والهوى. فالغفلة والشهوة أصلٌ من أُصول الشّرّ في الإنسان. والهوى لا يستقلّ وحده كدافع على ارتكاب الشّرّ، بل لا بدّ معه من عامل كالجهل، وإلّا فصاحب الهوى إذا علم قطعاً أنَّ ذلك يضرُّه ضرراً راجحاً انصرفت عنه نفسه بالطبع استجابة للفطرة؛ لأنّ الله طبعه على حبّ النفع، فلا يفعل الإنسان ما يجزم بأنّه ضررٌ راجح، وإذا فعله كان ذلك لفساد فطرته وجهله.

ولهذا فإنّ البلاء العظيم يكون من الشيطان، وليس مجرّد النفس، فإنّه يزيّن لها فعل السّيئة وارتكاب الشّر ويحدثها بما في ذلك من المحاسن التي يزينها للإنسان؛ كما فعل إبليس بآدم وحواء، فقال: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [طه]؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف].

بين الأخلاق والدين:

من أهمّ ما يميّز الأخلاق الإسلامية ارتباطها الوثيق بالدين في أوامره ونواهيه، فما أمر الشرع إلّا بما هو أخلاقيٌّ، وما نهى إلّا عمّا هو قبيح، ومن هذه العلاقة تستمدُّ سلطة الإلزام الخلقي قوّتها من سلطة الدين وقوّة تأثيره في

القلب الَّذِي يمتلئ بنور الإيمان، فنيعكس ذلك على سلوك الأفراد التزاماً بالقيم الخلقية وتنفيذ الأوامر الدينية. وليس غريباً أنْ نقرأ في كتب المعاجم اللُّغوية أَنَّ من بين معاني لفظ الأخلاق (الدين)، وفي ضوء هذا المعنى نجد كثيراً من علماء التفسير يتأوّلون قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، بمعنى: إِنَّك لعلى دين عظيم، كما روي ذلك عن ابن عباس.

ومِمَّا يؤكّد هذا الارتباط والتكامل ما جاء في الحديث الشريف من قوله ﷺ: «**إِنَّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[٤]، فلفظ الحديث جاء في عبارةٍ تفيد معنى الحصر أو القصر، بمعنى حصر وظيفة الرسول وبعثته في أَنَّه جاء لكي يتمّم مكارم الأخلاق.

وهذا الحديث الشريف يرشدنا إِلَى أمرين مهمين جداً:

الأوّل: أَنَّ الإنسان جاء إِلَى هذه الحياة وهو مزود بالفطرة القابلة والمستعدة لتقبل كلّ خلق حسن وخير، وترفض كُلّ خلق رديء ومسيء، وأنَّ هذه الفطرة هي الركيزة الأساسية التي تجعل الإنسان يستعدّ لأنْ ينهض متسامياً بنفسه عن كُلِّ خلق رديء ربما يكون قد اكتسبه من البيئة التي يعيش فيها، إِلَى الخلق الحسن السني، ويظلّ هكذا في حالة ترقٍّ وسموّ إِلَى ما هو أفضل دائماً طلباً للكمال والتزوّد بالأخلاق الفاضلة. ولعلّ من هنا نجد الإنسان الَّذِي يرتكب جريمة أو يخدش وجه الفضيلة غير راضٍ عن نفسه دائماً، وهو في حالة عدم استقرار نفسيٍّ، وإنْ شئت فقل في حالة خصام مع نفسه؛ لأنّه حين يرتكب فعلاً غير أخلاقي فإنّه يتناقض بفعله هذا مع فطرته السليمة التي جبلت على محبّة الخير وكراهية الشّر.

ولعلك تلاحظ ذلك بينك وبين نفسك، فأنت حين تكذب مثلاً فإنَّ اللسان يرتكب الكذب وقد يتكرر ذلك منه مرات ومرات في الوقت الَّذِي يكون القلب غير راض عن ذلك الفعل وموقن تماماً أَنَّك تكذب لو أضفت إِلَى كذبك

جرماً آخر فأقسمت بالأيمان المغلظة أنّك صادقٌ. فالقلب يكون في واد واللسان في واد آخر؛ لأنّ القلب يتعامل بلغة الفطرة السليمة بينما يتعامل اللسان بلغة الجوارح التي قد يخدعها الواقع وشهوات النفس فترتكب ما لا يرضى عنه القلب ويناقض منطق الفطرة، خاصة إنْ كان يحقّق لصاحبه منفعة عاجلة، وهذا الإحساس بالتناقض الداخلي يحسّه كُلّ فرد بينه وبين نفسه حين يرتكب فعلاً غير أخلاقي.

الأمر الثاني: أنَّ هذا الحديث يرشدنا إِلَى أَنَّ الأوامر والنواهي الدينية بمستوياتها المتعددة تحمل في مضمونها المعنى الأخلاقي الَّذِي يتصل مباشرة بإصلاح الفرد والمجتمع على السواء، وأنّ الشرع قد ألبس هذا المعنى الأخلاقي حكماً شرعياً ليستمدّ منه قوّة الإلزام به للمسلم وربطه بالعقيدة الإسلامية ربطاً محكماً؛ ليعلم المسلم من ذلك أَنَّ إهمال الفعل الأخلاقي هو في صميمه إهمالٌ للأمر الديني وتفريطٌ فيه. ومن هنا جاءت الأوامر الأخلاقية التي أجمعت عليها الأديان السماوية ونادت بها المذاهب الأخلاقية الكبرى في صيغة الأوامر الإلهية؛ لتكتسب قوّتها من الإلزام من قوّة إيمان صاحبها وامتلاء قلبه بحبّ الله وطاعته، قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

- ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨]، ويأمرنا بالعدل مع الأعداء كما أمرنا به مع الأصدقاء، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٩].

- ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

- ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

- ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين].

- ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

فكلُّ هذه أوامر أخلاقية جاءت في صيغ دينية؛ لتكتسب قوّة الالتزام بها من ربطها بالعقيدة الإسلامية وبكمال الإيمان وبأركان الإسلام من صلاة وصيام وزكاة، فيزداد الإيمان بكمال الالتزام بالأومر الأخلاقية إذا اقترن بها نيّة القربى إلَى الله، وينقص بنقصان ذلك، فتجد القرآن الكريم يأمر المسلم بالصلاة أو الصيام أو العبادة المطلقة، ثم يردفها بمفردات الأوامر الأخلاقية ليربط المسلم أهمية الأخلاق بأهمية الدين في نفسه؛ وبأهمية أركان الإسلام التي جاء الأمر الأخلاقي مقترنا بها. قال تعالى:

- ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

- ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥﴾ [المدثر].

- ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون].

ونجد في السُّنّة النبوية كثيراً من الأحاديث التي تربط الأوامر الأخلاقية بالعقيدة؛ لتدلّ على كمال الإيمان، قال ﷺ:

- «**عدلت شهادة الزور الإشراك بالله**»[٥].
- «**المؤمن لا يكذب**»[٦].
- «**من غشّنا فليس منّا**»[٧].
- «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبّ لنفسه**»[٨].
- «**إنَّ من الإيمان حسن الخلق**»[٩].
- «**والله لا يؤمن ـ قالها ثلاثاً ـ قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: من بات شبعاناً وجاره جائعٌ وهو يعلم**»[١٠]، فانظر كيف ربط الحديث الشريف بين كمال الإيمان والفعل الأخلاقي.

وعليك أنْ تقرأ وصايا لقمان لابنه وهو يعظه لتعلم كيف قرن القرآن الكريم أهمية الأوامر الأخلاقية وكيف ربطها بالاعتقاد وأُصوله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان]. ثُمّ زادها تفصيلاً ووضوحاً في ربط الأخلاق بالعبادة لتكتسب أهميتها وضرورة الالتزام بها في أوّل سورة المؤمنون، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ

﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾.

ولقد جسّد القرآن الكريم الشخصية الأخلاقية في صفات عباد الرحمن التي ذكرها في سورة الفرقان لنعلم منها كيف كانت هذه الشمائل الأخلاقية سبباً في اكتساب هذه الصفة الدينية العظيمة (عباد الرحمن)، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾.

واقرأ كذلك كيف قرن القرآن الأوامر الأخلاقية بالإيمان وربطها بالعقيدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت].

واقرأ كيف قرن القرآن الكريم النهي عن سوء الخلق والأفعال المنكرة بالنهي عن الشرك بالله، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الانعام].

وهذا قد تكرّر في القرآن الكريم كثيراً؛ حيث تجد الأوامر الأخلاقية تلبس في القرآن الكريم ثوب الأوامر الدينية لنتبيّن من ذلك قداسة الأخلاق في الإسلام وأنّها المنبع الوحيد لصلاح أحوال الأُمّة أفراداً وجماعات، وأنّ رسل الله جميعاً حملوا عبء هذه الأمانة ليبلغوها للناس في صيغة الأمر الإلهي، فقرنوها بالجزاء الأخروي عند الله ثواباً أو عقاباً، وجعل مسؤولية التطبيق لهذه المبادئ معلّقة برقاب المسلمين ـ كلّ على حسب طاعته ـ وأنّ إهمالها أو ضياعها من المجتمع هو المقدّمة الضرورية لانهيار المجتمع كله.

ولا نريد أنْ نستطرد في ذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي جعلت من الالتزام الأخلاقي معلماً أساسياً من معالم الالتزام الديني على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة والأُمة، ولكن الَّذِي أودّ الإشارة إليه هنا أنَّ الأُمم كالأفراد في ضرورة التزامها بالقيم الأخلاقية، وهو معلمٌ أساسيّ من معالم التزامها بالدين، فتتسع دائرة مسؤولية الأخلاق في الإسلام لتشمل في عمومها كُلّ مستويات البناء الاجتماعي للأُمّة، الفرد، الأسرة، الدولة، مؤسسات الدولة؛ ليعمل الجميع تحت مظلّة الأوامر الأخلاقية التي هي في

صميمها أوامر دينية؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم أوامر دينية تخصُّ الأُسرة وتنظّم العلاقة الأُسرية على نحوٍ تربويّ، يغرس في نفوس الأبناء كيف يتعاملون مع الوالدين، وتضع الأبوين في مواجهة مباشرة مع مسؤوليتهما عن غرس المبادئ الأخلاقية في نفوس الأبناء عن طريق القدوة في السلوك وإرشادهم إِلَى الالتزام بالأوامر الدينية والصبر على ذلك، والتعوّد على تحمّل مشقة هذا اللون من التربية حتّى يتعوّد الأبناء على السُّلوك الأخلاقي، ويصير لهم عادة وطبعاً ملازماً لهم.

بل إِنَّ القرآن الكريم يعلمنا كيف نربّي الأولاد على التعامل مع الوالدين في حياتهم الخاصة، وكيف يحترمون خصوصية الحياة بين الوالدين، فلا يدخلون عليهم في مجالسهم الخاصة بدون استئذان، ولا يقتحمون عليهم غرفات النوم بدون إذن؛ ليتعوّد الطفل منذ الصغر على احترام الخصوصيات لكُلِّ شخصٍ حتى الوالدين. إِنَّ الرقي بمستوى التربية الأخلاقية في داخل الأسرة قد جعله القرآن الكريم مهمّة أبوية تتعلّق مسؤوليتها بالوالدين يُسألان عن إهمالها أو التفريط فيها أمام الله يوم القيامة.

وقد أرشدنا القرآن إِلَى ذلك في سورة النور، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾﴾.

ثُمّ يرشد القرآن إِلَى نوعٍ من الخلق الرفيع الَّذِي يزرع الحبّ والمودّة بين

الأهل والأقارب والأصدقاء، يقول تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

كما لفت القرآن الكريم أنظارنا إِلَى فنّ التربية السليمة التي تبدأ بوضع الضوابط الأخلاقية وغرسها في النُّفوس منذ الصِّغر؛ ليتعوّد النشء عليها، خاصّة ما يتصل منها بغرائز الجسد والشهوات وأهواء النفس التي يصعب معالجتها إذا استحكمت في توجيه السلوك نحو إشباع الغرائز والخضوع لهوى النفس؛ لذلك تجد القرآن ينبهنا إِلَى الأخذ بأسلوب الوقاية أوالعلاج الوقائي، وهو خير وسيلة للتربية منذ الصِّغر. فلكي يتعوّد المرء على خلق العفّة مثلاً تجد الآيات الكريمة تحذر من الوقوع في المقدمات التي تؤدي إِلَى الرذيلة أو الاقتراب منها، فتأمر الآيات بغضّ البصر الَّذِي هو بريد الزنا، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور].

إِنَّ هذا اللون من العلاج الوقائي يساعد على بناء المجتمع على الفضيلة خاصة إذا اهتمت الأسرة بزرع هذه الفضائل في نفوس الأبناء منذ الصغر حتى إذا شبّ الأطفال عن الطوق لا يجدون مشقة ولا عناء في الالتزام بهذه الفضائل.

وكما نبّه القرآن الفرد المسلم إِلَى ضرورة الالتزام بالأوامر الأخلاقية نبّه

كذلك الأمم والشعوب إِلَى أهمية الالتزام بالقيم الأخلاقية، وجعل ذلك الالتزام عنواناً لتحضرها وتماسك بنائها الاجتماعي، وأنّ غياب القيم الأخلاقية أو تغييبها تحت أيّ مسمّى هو نذير فناء الأُمم ومقدمة اندثار حضارتها، كما قال الشاعر:

وإنّما الأُمم الأخلاق ما بقيت فإنْ همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال آخر:

وإذا أُصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلا

ومن هنا جاءت تحذيرات القرآن الكريم من سوء العاقبة للأمم التي فرّطت في عبادتها الأخلاقية، فانتشر فيها الظُّلم وغاب العدل، وغابت المساواة وحلّت المحسوبية، ووسّد فيها الأمر إِلَى غير أهله، وضاعت الحقوق، وضيّعت الأمانات، وأُكلت أموال الناس بالباطل، كُلّ ذلك أو بعضه كفيل بضياع الأُمة وزوال الملك، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف: ٥٩]، وقال أيضاً: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥]، وقال: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وقال: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

إِنَّ هذا الربط الواضح بين الأوامر الأخلاقية والعقيدة الإسلامية يدعونا إِلَى التساؤل حول أحكام الشرع الإسلامي ومستوياتها وما تشتمل عليه من معانٍ أخلاقية أساسية في بناء المجتمع وما تعبّر عنه من أُصول وقواعد، ينبغي الأخذ بها في مناهج التربية في مؤسساتنا التعليمية، كما يدعونا إِلَى التساؤل أيضاً لماذا لم يهتم دارسو الفقه الإسلامي وأُصوله ببيان المعاني الأخلاقية في مسائل الفروع الفقهية، وبيان أثرها في تماسك البناء الاجتماعي والحفاظ عليه؟ إِنَّ مقاصد

الشريعة الإسلامية تدور في فلك «تحقيق المصالح ودرء المفاسد»، وهذه هي مهمة علم الأخلاق الَّذِي يغلب فيه جانب العمل على النظر. وقد نبّهتُ في السبعينات من القرن العشرين إِلَى أهمية الربط بين علم الفقه والأُصول من جانب وعلم الأخلاق في الإسلام من جانب آخر، وأنّ مهمّة العلمين واحدة؛ إذ هي تتركز في بيان ما يجوز وما لا يجوز، الحلال والحرام، ما هو أخلاقيٌّ وما هو غير أخلاقي؛ انطلاقاً من الترابط الضروري بين الدين والأخلاق، وهذا يحتاج إِلَى اهتمام المتخصصين في الفقه إِلَى إبراز هذه المعاني النبيلة في دراسة الفقه بدلاً من دراسة مسائله بشكلها التقليدي الجاف.

خصائص الأخلاق الإسلامية:

لا شكّ أَنَّ هناك علاقة وثيقة بين أخلاقيات الأُمم والشعوب ومنطلقاتها الحضارية، حيث تتجسّد في مجموعة القيم الأخلاقية للأمم خصائص حضارتها التي تميّزها عن حضارة غيرها من الأُمم الأُخرى، فالحضارة الغربية ـ مثلاً ـ يغلب عليها الطابع المادي الَّذِي يتمثّل في إشباع حاجة الجسد وتحقيق رغباته، بينما تختفي منها أو تكاد مظاهر الاهتمام بالجانب الروحي والعمل على إشباع حاجاته الفطرية، مِمَّا يترتّب على ذلك انفصامٌ في شخصية الفرد؛ حيث تتحقق للجسم المادي كُلّ رغباته الحسية، وأهمل الجانب الروحي تماماً، وأصبح المرء هناك في حالة فقر روحي وأشبه بالجائع الَّذِي يحتاج إِلَى ما يسدُّ رمقه أو الظمآن الَّذِي يبحث عن ماء يروي به غلته. فانتشرت بينهم ظواهر الانتحار والإحساس بافتقاد معنى الحياة، وضياع قيمة الوجود وغايته، واختزلوا الوجود الإنساني كله في الجانب المادي فقط، فلا حياة بعد الموت، وليس هناك غاية وجودية نسعى إليها.

والحضارة الإسلامية جاءت على النقيض من ذلك تماماً؛ حيث اهتمت

بالجانب الروحي والمادي معاً، فلم تجعل لأحد الجانبين غلبة على الآخر، فعرفت للجسم حقوقه، وحافظت عليها ولم تهمل الجانب الروحي، بل اعترفت به وبأثره في توجيه السلوك الإنساني نحو غاية أخلاقية مطلوبة، تتوازن فيها حاجات الجسم والروح معاً، ومن هنا كانت الأخلاق الإسلامية صورة حيّة تجسّد الطبيعة الإنسانية في أبعادها المختلفة ما علمناه منها وما لم نعلمه، فتتميّز بالواقعية المستمدة من طبيعة الإنسان نفسه التي تجمع بين المادة والروح، والتي جمع بينهما القرآن الكريم في صورة تلازمية لا تقبل انفكاك أحد الجانبين عن الآخر، فالقرآن الكريم قد أشار إلَى الجانب المادي وأكّده كحقيقةٍ واقعيةٍ لها أثرها في بناء الإنسان، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾ [طه: ٥٥]، ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [المؤمنون: ١٢].

ولا شكّ أنَّ هذا الجانب المادي له آثاره ومتطلباته في السُّلوك الإنساني التي لا يجوز إغفالها. وفي نفس الوقت نجد القرآن الكريم قد أشار إلَى الجانب الروحي الَّذِي يحتاج من الإنسان إلَى مراعاته وإشباع حاجاته؛ لأنّ أثر الجانب الرُّوحي في سلوك الإنسان قد يكون أقوى وأشدّ أثراً من الجانب المادي، وقد لا يشعر به الإنسان حيناً، ولكنّه لا يفقد أثره في السلوك وفي خلق التوازن الرُّوحي والنفس للإنسان.

قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾ [ص]، فقد بيّنت الآية الكريمة أَنَّ الإنسان خلق على نحوٍ خاصٍّ يجمع بين المادة الطينية والنفخة الإلهية التي صار بها إنساناً مكرماً استحق أنْ تؤمر الملائكة بالسجود له. وهذه الخاصيّة الإنسانية المكرمة لم تكتمل إِلَّا بالجمع بين هذين الجانبين في شكلٍ متوازنٍ معتدلٍ ليكون السلوك الإنساني تجسيداً حياً لإنسانٍ متكامل الجوانب سويّ الرغبات والمقاصد، وضرورة

التوازن بين هذين الجانبين (المادي والروحي) والعمل على إيجاد التوازن بينهما في سلوك الإنسان قد أضفى على الأخلاق الإسلامية خصائص ومميزات جعلتها تنفرد بها عن الدراسات الأخلاقية في المذاهب الفلسفية المختلفة، ومن أهم الخصائص التي تتميّز بها الأخلاق الإسلامية:

١. أنَّها تستمدّ قوّة الالتزام بها من قوّة الإيمان بالعقيدة الدينية التي جعلت المبادئ الأخلاقية جزءاً أساساً من شعائر الدين وأوامره. والرسول ﷺ قد ربط بين السلوك الأخلاقي وكمال الإيمان ربطاً محكماً، فجعل ﷺ التخلُّق والسير على مقتضى الأوامر الأخلاقية من كمال الإيمان، ولقد جاءت الأوامر الإلهية لتؤكّد هذه المعاني وتجعل منها أمراً شرعياً يكلّف به المؤمن ليثاب عليه في الآخرة إذا فعله بنية القربى إلَى الله تعالى، ويعاقب على تركه وإهماله. ومن هنا نجد أنَّ المبادئ الأخلاقية الكبرى (العدل، الوفاء، الصدق، الأمانة) وما تفرّع عنها من مفردات أخلاقية قد أمر بها الإسلام على أنَّها تكليفٌ شرعيٌّ ودليلٌ على صحة الاعتقاد وكمال الإيمان، وأنّ أيّ خلل يتطرّق إليها بالإهمال أو عدم الالتزام فإنّ ذلك الخلل ينسحب بالتالي على صحة الاعتقاد وكمال الإيمان، وإذا كانت هذه المبادئ تمثّل قيماً أخلاقية في جميع المذاهب الفلسفية قديمها وحديثها فإنّها كذلك محلّ اتفاق بين جميع الأديان السماوية على أنَّها أوامر إلهية جاءت بها التوراة وبشّر بها الإنجيل وصدقهما القرآن الكريم.

ونجد السنة النبوية المطهرة قد ربطت كذلك ربطاً محكماً بين مفردات علم الأخلاق وكمال الإيمان بحيث إذا انتفى الالتزام بالسلوك الأخلاقي ينتفي تبعاً لذلك كمال الإيمان ممّا يجعل المؤمن مطالباً شرعاً وديناً بتنفيذ كُلّ ما أرشدت إليه مبادئ الأخلاق من منطلق إيماني عقيدي ديني، فضلاً عن كونه أمراً أخلاقياً، وهي شعب الإيمان التي أشارت إليها الأحاديث الكثيرة.

ولا شكّ أنَّ السلوك الأخلاقي الَّذِي يستمدّ قوّة الالتزام به من قوّة الإيمان

بالعقيدة نفسها يكون سلطانه على الجوارح أقوى وعلى القلب أشدّ حيث تتحرّك الجوارح تبعاً لقوّة امتلاء القلب بمعاني الإيمان، والإحساس بخشية الله الَّذِي أمر ونهى، فتنصاع الجوارح تنفيذاً لأوامر الله ونواهيه وتتحد الأوامر الإلهية مع المبادئ الأخلاقية في الفعل الإنساني ليجمع الإنسان في سلوكه بين نور الإيمان وكمال الأخلاق تجسيداً لقوله ﷺ: «**إنَّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، وتتوحّد غاية الأخلاق في الإسلام مع مقاصد الشرع وغاياته التي تدور كلها حول تحقيق المصالح ودرء المفاسد للفرد والجماعة على السواء. وقد تكفّل بذلك مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الَّذِي نصّت عليه آيات القرآن الكريم، وما صحّ من أحاديث الرسول ﷺ. وتبلغ أهمية هذا المبدأ في بناء المجتمع درجةً قصوى حيث يحتلّ درجة الفرض الكفائي بين مراتب الأحكام الشرعية؛ بحيث إذا قام به بعض أفراد المجتمع يسقط الإثم عن الباقين، وإذا فرّطت الأُمة في القيام به وأهملته فقد يأثم الجميع، وتجني الأُمة ثمرة ذلك الإهمال متمثلاً في ضياع القيم الأخلاقية وشيوع الرذيلة، وتفشّي اللامبالاة والسلبية التي هي من أخطر أمراض المجتمع البشري. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال ﷺ: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليوشكن الله أنْ يبعث عليكم عقاباً من عنده ثُمّ لتدعنّه فلا يستجيب لكم**»[١١].

٢. إنَّ هذه الأخلاق تعتمد في سلطتها على الرقابة الداخلية الذاتية للفرد، فليست هناك رقابة من خارج الفرد على سلوكه الشخصي، وإنما هو رقيب بنفسه على نفسه، كما قال تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]. فهو إذا التزم سلوكاً أخلاقياً معيّناً فينبغي أنْ يكون ذلك لقناعته الداخلية بأنّ هذا السلوك هو ما ينبغي فعله إيماناً بصحة المبدأ في ذاته، وليس خوفاً من سلطةٍ

خارجيةٍ تتمثّل في رقابة الشرطة مثلاً، أو خوفاً من لوم المجتمع له، أو طلباً لمنفعةٍ أو تحقيقاً لمصلحة؛ حتّى يكون الفعل محقّقاً للمعنى الأخلاقي والديني معاً كما قال ﷺ: «**إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكُلِّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلَى الله ورسوله فهجرته إلَى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلَى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلَى ما هاجر إليه**»[١٢]. وتحرير الفعل الأخلاقي من هذه الشوائب التي قد تعلق به تجعله خالصاً لوجه الله تعالى، فيثاب صاحبه عليه في الآخرة، ويمدح به في الدنيا. فالرقابة القلبية هي الحارس الأمين على سلوك الفرد، فإذا كانت سلطة الضمير حيّة متيقظة فلا يحتاج معها الفرد إلَى رقيبٍ من الخارج. ولو ساد هذا المبدأ وسيطر على سلوك أفراد المجتمع كُلّه لصار المجتمع آمناً في نفسه آمناً على نفسه، ولما عانت المجتمعات الإنسانية من ويلات السلوك الإجرامي الَّذِي يدلُّ على غيبة الضمير وتدنّي الأخلاق.

٣. إنَّها أخلاقٌ معيارية تهتم بالبحث فيما ينبغي أنْ يكون عليه سلوك الإنسان عكس الأخلاق الوضعية التي تهتمّ بالبحث فيما هو واقعٌ في المجتمع من السلوك الإنساني، غايتها الارتقاء والنُّهوض بالسُّلوك الإنساني، فهي دائماً تحثّ الإنسان على التحلّي بما هو أفضل من القيم والمبادئ وتجعل من الإنسان كائناً مسؤولاً عن النُّهوض بنفسه وبمجتمعه سواء كان الفرد حاكماً أو محكوماً. فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته[١٣]. وتتوزّع هذه المسؤولية لتشمل جوانب الحياة المختلفة؛ لتجعل من الإنسان حارساً أميناً على مصالح أُمته يرعاها ويصونها من منطلق مسؤوليته عمّا استرعاه عليه المجتمع؛ ولذلك كانت المسؤولية الأخلاقية شاملة وعامة لكُلّ أفراد المجتمع ـ كلٌّ بحسب مكانته أو بحسب طاقته ـ فهناك ما يسمّى بأخلاقيات الطبيب، وأخلاقيات المعلّم، وأخلاقيات القائد، وأخلاقيات المهنة، وهكذا... وقد عبّر الرسول ﷺ عن هذه المعاني كلها في كلمةٍ جامعةٍ حين قال: «**إنَّ الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملاً**

أن يتقنه»[١٤]، فإنّ إتقان العمل في كُلّ المجالات هو الطريق إِلَى نهضة الأُمة وتقدّمها، ولا شكّ أَنَّ ذلك كُلّه مطلبٌ شرعيٌّ وأمرٌ أخلاقيّ.

أمّا الأخلاق الوضعية فهي تهتمّ فقط بالبحث في العادات والتقاليد الوضعية التي يكون عليها السلوك الإنساني في الواقع؛ لنستخرج منها قواعدها وضوابطها السلوكية، فيه تهتمّ بما هو كائنٌ فعلاً. أمّا الأخلاق الإسلامية فهي دائماً تهتمّ بما ينبغي أنْ يكون عليه السلوك، والأخلاق الإسلامية تستمدّ مثاليتها المعيارية من كونها إلهية المصدر، غايتها الارتقاء بالفرد والمجتمع، غياتها السمو الأخلاقي الَّذِي يرقى بالفرد إِلَى مصافّ الملائكة أو أكثر، يقدّم فيها مبدأ الإيثار على مبدأ الأثرة، ومصلحة الأُمة مقدمة على مصلحة الفرد، والصالح العام مقدّم على الصالح الخاص؛ لتصل في النهاية إِلَى مجتمعٍ مثالي تحكمه القيم الأخلاقية، وليس المصلحة الشخصية، يعيش فيه الضعيف والفقير بجانب القوي والغني، فلا يطغى صاحب جاهٍ أو سلطانٍ على فقير أو ضعيفٍ، وعندئذ تتلاحم القلوب وتتوحد المقاصد والغايات ويسود الأمن والأمان في ربوع المجتمع كله.

٤. إِنَّها تجمع بين النسبية والإطلاق، فإنّ المبادئ الأخلاقية التي تسعى إِلَى تحقيقها في الواقع هي مبادئ عامّة، مطلقة، كلية (العدل، الصدق، الوفاء، الأمانة). هذه كلها مبادئ مطلقة تتطلبها المجتمعات الإنسانية لتسود فيها حياة مستقرة هادئة تحقّق خير الإنسان والجماعة. وهي مبادئ عقلية مثالية معيارية فرضها العقل كقواعد عامّة للسلوك الأخلاقي، ونزلت بها الأديان السماوية كلها، فصارت أشبه بدستور للسلوك البشري على مستوى الفرد والجماعة. ومن هنا فهي مبادئ أخلاقية لها صفة الإطلاق والعموم.

أمّا على مستوى التطبيق العملي في واقع الحياة البشرية، فإنّها تستمدّ نسبيتها من الظروف المحيطة بالفرد، ومن إمكانات الفرد وطاقاته التي يتمتّع بها، ومن

هنا تتفاوت مواقف الأفراد والجماعات عند تطبيق المبدأ حيث يكون نصيب الفرد منه حسب استطاعته وإمكاناته، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]. وهذا التفاوت النسبي بين الأفراد يمليه الواقع وضرورته، وليس هوى الشخص ورغباته، فلا يصحُّ ولا يقبل من الفرد أنْ يتعلل بعدم الاستطاعة وفقدان الطاقة على الفعل الأخلاقي في الوقت الَّذِي يملك فيه الطاقة والقدرة؛ لأنّ ذلك يطعن في أمانته على نفسه، ويمثل خللاً في رقابته الداخلية على ذاته وسلوكه. وينبغي أنْ يعلم أنَّ رقابته الذاتية تستمدّ قوّتها وفاعليتها من إيمانه برقابة الله تعالى عليه، وإيمانه بأنّ الله يعلم السرّ وأخفى، فإنّ أيّ خلل يتسلّل إِلَى رقابته الذاتية فإنّه يخدش إيمانه برقابة الله عليه. وقد حذرنا القرآن الكريم من الغفلة أو التغافل عن هذه الرقابة وأهميتها في تحقيق المعنى الأخلاقي والديني في سلوك الفرد، وجعل مرتبة الإحسان تجسيداً حياً لمعنى هذه الرقابة الذاتية. قال ﷺ في حديث جبريل الَّذِي نزل ليسأل الرسول ـ ما الإيمان.. ما الإسلام.. ما الإحسان.. ـ فقال: «**الإحسان أنْ تعبد الله كأنّك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنّه يراك**»[١٥].

٥. إنَّها تتصف بالواقعية؛ لأنّها تراعي الطبيعة البشرية وما يحيط بها من ظروفٍ وملابسات قد يضطر المرء فيها إِلَى فعل ما هو غير أخلاقي تحت ضغط الظروف والضرورة، وهذه الغاية تنفرد بها الأخلاق الإسلامية عن بقية المذاهب الفلسفية الأخرى؛ ولذلك كانت القاعدة الفقهية المعروفة: (**إنَّ الضرورات تبيح المحظورات**)، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وفي الحديث الصّحيح: «**إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم**»[١٦]، وكانت التكاليف الشرعية منوطة بالاستطاعة والقدرة.

إِنَّ هذه الخاصية ترفع عن الإنسان إحساسه بالحرج النفسي إذا اضطرّ إِلَى فعل محظور أو ترك واجب تحت ضغط الظروف أو إذا أُكره على ذلك. وقد تتسع دائرة هذه القاعدة لتشمل فعل الجوارح كلها حتى نطق اللسان بكلمة الكفر، كما حدث في عصر الرسالة الأُولى، فقد أجبر المشركون عمار بن ياسر أنْ ينطق بكلمة الكفر وهو تحت سياط التعذيب والضرب، فقالها مضطراً ومكرها عليها، وحزن حزناً شديداً، وأخبر الرسول ﷺ بذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

ولكنّ اضطرار المرء إِلَى فعل المحظور بجوارحه ينبغي أنْ يكون مقروناً بكراهية القلب ونفوره من الفعل؛ لأنّه لا سلطان لأحد على القلوب إِلَّا الله، وثبات القلب على كراهية المحظور شرعاً ونفوره منه دليلٌ على امتلاء القلب بمعاني الإيمان والخوف من الله حتى وإنْ ارتكبت الجوارح الفعل المحظور اضطراراً.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الإسلام والطبيعة الإنسانية:

وفي الإسلام نجد أَنَّ نظرته إِلَى الطبيعة الإنسانية وخصائصها كانت أكثر شمولاً واتساعاً من الاتجاهات الفلسفية؛ لأنّها جمعت في نظرتها إِلَى الإنسان كلّ الجوانب المادية والروحية وأضافت إليها ضرورة التسامي بهذه الجوانب والتنسيق بينها باعتبار أَنَّ الإنسان كُلٌّ لا يتجزأ، فلا ينبغي أنْ ينظر إليه على أَنَّه تركيبٌ عضويٌ أو مزيج من مجموعة العناصر الطبيعية فقط. كما أَنَّه من الخطأ أنْ ينظر إِلَى الإنسان على أَنَّه عقلٌ مجرّدٌ من المادة لا صلة له بها، أو أَنَّه روحٌ سماوية تخلصت من شوائب الطبيعة، بل راعت في الإنسان أَنَّه كُلٌّ متكاملٌ من هذه العناصر جميعها، ولا بدّ لكي يستقيم سلوك الإنسان من ضرورة التنسيق بين كُلّ هذه الجوانب حتى يؤدّي كُلّ جانب منها وظيفته في حراسة قانون

أخلاقيّ يهدف الإنسان إلَى تحقيقه.

ولقد أكّد القرآن على الجانب المادي في الإنسان، ونبّه على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧]، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾ [الإنسان: ٢]. وقد راعى القرآن أنَّ هذا الجانب المادي في الإنسان يعتبر أساساً من أُسس تكوينه العضوية ولا بد له من إشباع هذا الجانب، فوضع لذلك نظاماً محكماً تكفّل به علم الفقه وكتب الفروع من معاملات وعبادات، وجعل لكُلّ غريزة من الغرائز المادية نظاماً أخلاقياً ينبغي سلوكه في إشباعها، وجعل إشباع هذه الجوانب عند توفّر القصد والنية عبادة يتقرّب بها إلَى الله، وقد جاء في الحديث: «**أنَّ نطفة أحدكم صدقة**»، ولمّا سئل الرسول ﷺ: هل يكون في نطفة أحدنا صدقة يا رسول الله؟ قال: «**نعم، أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه بها وزر، فكذلك لو وضعها في حلالٍ فإنّ له بها أجراً**».

وبالإضافة إلَى هذا الجانب المادي فهناك جانبٌ آخر روحي يتمثّل في النفس والعقل والروح، ولهذا الجانب خصائص معينة وله مقتضيات لا بد من مراعاتها في السلوك. وفي الإسلام لا يوجد انفصامٌ بين هذين الجانبين وإنما بينهما صلة قوية وضّحها الرسول في قوله: «**إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كُلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كُلّه، ألا وهي القلب**». فالارتباط بين الجانبين المادي والروحي ضروري في نظر الإسلام؛ لأنّ أحدهما محكومٌ بالآخر وخاضعٌ له؛ إذ لا بد أنْ يتحقق سيطرة الجانب الروحي السماوي على الجانب المادي الأرضي؛ ليستقيم سلوك الإنسان. ومحاولة النظر إلَى أيّ جانب من هذه الجوانب مستقلاً عن الآخر محاولة خاطئة محكومٌ عليها بالفشل مسبقاً؛ لأنّ الإنسان يجمع في تكوينه بين خصائص مادية وأُخرى سماوية، ونتج عن المزج بين هذه الخصائص جميعها صفاتٌ أُخرى ثالثة نشأت من تجمّع هذين العنصرين (المادي والروحي) في الإنسان، وهذه الصفات الأخيرة لها أثرها في

مزاج الإنسان وسلوكه. ومن الخطأ أن ينظر إِلَى الإنسان على أَنَّه مجموعة من العناصر المركبة فقط، بل علينا في تفسير سلوكه أن ننظر إليه على أَنَّه شخصية ينبغي أنْ تتكامل فيها الجوانب المادية والروحية، وإنّ كل جانبٍ منهما ينبغي أنْ يقوم بمهمته ووظيفته في حياة الإنسان بانتظامٍ وتنسيقٍ مع بقية الجوانب الأُخرى، ومن ثمّ فإنّ الإنسان لا بد أن يتميّز بخصائص معيّنة لا نجدها لدى غيره من الكائنات الأُخرى. ولعلّ هنا موطن الابتلاء الَّذِي تحدّث عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢].

تهذيب الغرائز:

ولقد كان الإسلام أكثر الأديان السماوية حفاظاً على إيجاد التوازن والتنسيق بين كُلّ ميول الإنسان ورغباته وغرائزه ووضع النظم والمبادئ التي يستطيع بها الإنسان تهذيب غرائزه وتنمية ملكاته وميوله وتنمية الجوانب الخيّرة في طبيعته وترويض الشّرير منها. ومن هنا كان الإسلام حريصاً على تعدّد مصادر الإلزام الخلقي وتنوعها بحسب تنوّع الطبائع البشرية واختلاف خصائص هذه الطبائع من شخصٍ لآخر، بالإضافة إِلَى حرصه على إشباع غرائزه وميوله بوسائل مشروعة تحفظ على الإنسان آدميته، وتصون عليه حياته في إطارٍ سليم. وهناك كثيرٌ من النصوص التي تولّت كيفية تهذيب النفس وترويضها ببيان الوسائل المشروعة لإشباع الغرائز وتنظيمها مثل كبح جماح النفس وترويضها على الحلم والعفو، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وجاء رجلٌ إِلَى النبي ﷺ وقال له: أوصني يا رسول الله. قال: «**لا تغضب**»، قال: أوصني. قال: «**لا تغضب**»، وكررها الرجل ثلاثاً، وقال له الرسول القول نفسه. وفي الأثر: «**ليس الشديد بالصرعة إِنَّما الشديد الَّذِي يملك نفسه عند الغضب**»(١٧).

وغريزة التملُّك وحبّ المال قد هذبها القرآن وطوّعها بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ [الحشر: ٩]، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وتوعّد من لا يستطيع مقاومة هذه الغريزة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، وكتب الأحاديث النبوية مليئة بالنصوص التي ترغّب في الإنفاق وتحذّر من البخل ولو كان بشقّ تمرة.

ونزعة الاستعلاء والتكبّر والخيلاء حاول القرآن إماتتها ببيان وصايا الأنبياء إلَى أبنائهم بعدم التكبر والاستعلاء، قال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ﴾ [لقمان].

وكثيراً ما يردد القرآن هذا النداء على أسماع المسلمين ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ تذكيراً لهم بأصلهم ومبدأ نشأتهم بأنّهم من ترابٍ، فلا يحقّ لهم أنْ يتكبروا ويختالوا في الأرض مرحاً.

ومثل غريزة شهوة البطن والفرج، فمن حاول إشباعها عن طريقٍ غير مشروعٍ فقد توعده الله بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، ومن لم يتيسر له إشباعها بالطريق المشروع فقد بيّن الإسلام وسائل تنظيمها وترويضها، قال ﷺ: «**يا معشر المسلمين، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنّها أغض للبصر، وأحفظ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّه وجاء**»[١٨]، إلَى غير ذلك من الطباع التي تولّى القرآن تطويعها لمبادئ الأخلاق ومعايير السلوك القويم.

ولقد راعى الإسلام أنْ يُقيم قانونه الأخلاقي على أساس قانون الحياة الإنسانية نفسها بدلاً من أنْ يعارضها، وجعل لكُلّ مستوى من النماذج البشرية ما يناسبه من مصادر الإلزام الخلقي.

وتأتي في الدرجة الأُولى من مصادر الإلزام سلطة الضمير الخلقي الَّذِي ينبع أساساً من وجدان الإنسان وفطرته، كمصدرٍ من مصادر التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح، ومن ثمّ تطمئن نفسه إِلَى السلوك الأخلاقي، وتأبى السلوك غير الأخلاقي، وبالتالي فإنّ ذلك يكون دافعاً إِلَى الالتزام بالأوّل والابتعاد عن الثاني، ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وآله إِلَى ذلك في قوله: «**البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر**»[١٩].

ثُمّ يأتي العقل باعتباره مصدراً من مصادر الإلزام الخلقي في الإسلام، والقرآن جعل صفة العقل والتعقل من المعاني التي يحاسب المرء عليها إذا هو لم يخضع لسلطتها أو تمرّد على أوامرها. وهذا ما أفاض فيه من يؤمن بالحسن والقبح العقليين؛ ولكنّ الَّذِي أودّ الإشارة إليه هنا أَنَّ وجدان الإنسان لضميره وإحساسه به وشعوره بأوامره سابقٌ على وجدانه لعقله؛ باعتبار أَنَّهما مصدران من مصادر الإلزام الخلقي، وأنّ كُلًّا منهما خاصٌّ بنموذج معيّن من البشر.

وهناك طراز من الناس ماتت ضمائرهم وكسدت عقولهم، فلم ينتفعوا بوجدان العقل والضمير، ولم ينفع معهم سلطانهما، وهنا نجد الإسلام يلجأ إِلَى أُسلوب الترغيب والترهيب والتحذير والتنفير كمصدرٍ من مصادر الإلزام بالسلوك الخلقي؛ لأنّ الترغيب والترهيب من الوسائل التي تثير النفوس وتحرّك الضمائر نحو المقصود، ويستعمل القرآن مع هذا النوع من البشر أسلوب التهديد أحياناً، قال سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وهناك نوعٌ من البشر لا تحرّكهم إِلَّا منافعهم الشخصية فيلجأ الإسلام معهم إِلَى أسلوب المنفعة باعتباره مصدراً ملزماً يليق بهذا النوع من الناس؛ باعتبار أَنَّهم أَلِفوا اللذات وطبعوا على جلب النافع لها؛ لهذا حرص الإسلام على التشويق في السلوك الحسن من أجل المكافآت والجزاءات الطيبة، وجعل ذلك مناسباً لطبيعة هؤلاء ملزماً لهم بالسعي وراء ما ينفعهم، ووضع لذلك الإطار

الصحيح لجلب هذه المنفعة، فقال سبحانه:

ـ ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ـ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

ـ ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

إِلَى غير ذلك من النصوص التي تستميل القلوب إِلَى العمل الصالح بقصد الحصول على المكافأة والجزاء الحسن في الدنيا والآخرة. ولا شكّ أَنَّ هذا أُسلوب هامٌ ونافعٌ لكثير من الناس الَّذين لم يرقوا بأنفسهم إِلَى مستوى النماذج الأُخرى.

وفي مؤخرة القافلة الإنسانية يوجد نوعٌ من البشر لا يرعوون بأيّ سلطانٍ من العقل والضمير، ولا ينفع معهم ترغيبٌ ولا ترهيبٌ، فهم خطرٌ على المجتمع كلّه؛ لأنَّهم قد استهوتهم شهواتهم فلم يسمعوا قول الحق ولا استجابوا لنداء العقل، وهذا النوع من الناس لا يرعوون إِلَّا بسلطان القوّة، ولا يجدي معهم غير عصا السلطان والجماعة، وفي مثل هذا الموقف يجعل الإسلام الجماعة كلها مصدراً من مصادر الإلزام للفرد بالسلوك الأخلاقي، والجماعة مسؤولة عن حماية نفسها من شرّ هذا النوع، ومسؤولة أيضاً عن تقويمه وإصلاحه؛ لأنّ فساد الفرد خطوة أُولى نحو فساد الجماعة، وما لم تتدارك هذه الخطوة فسيتلوها خطوات أُخرى في هدم الكيان الاجتماعي كُله، فتنشأ الأمراض الاجتماعية وتنتشر الموبقات، ويعمّ الفساد، وهذا ما حرص الإسلام على حماية المجتمع منه.

* * *

الهوامش:

(١) انظر: د. محمد عبد الله دراز، مدخلٌ إلَى القرآن الكريم.

(٢) صحيح البخاريّ ٢: ١٠٤، كتاب الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م، مصورة عن طبعة دار الطّباعة العامرة باستانبول.

(٣) النّيسابوري، مسلم، صحيح مسلم ٨: ١٥٩، نشر دار الفكر، بيروت.

(٤) راجع: الهيثمي، نور الدّين علي بن أبي بكر، مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد ٨: ١٨٨، نشر: دار الكتب العلميَّة ١٤٠٨، بيروت.

(٥) ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد ٤: ٣٢١، دار صادر، بيروت.

(٦) انظر: الترغيب والترهيب ٤: ٢٨.

(٧) النّيسابوري، مسلم، صحيح مسلم ١: ٦٩، مرجعٌ سابق.

(٨) متفق عليه، انظر اللُّؤلؤ والمرجان ١: ١٠، الحديث رقم: (٢٨).

(٩) الحافظ الطَّبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير ٨: ١٨٢، تحقيق: حمدي عبد المجيد السَّلفي، الطَّبعة الثَّانية، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت.

(١٠) الترغيب والترهيب ٣: ٢٢.

(١١) مسند أحمد ٥: ٣٨٩، مرجعٌ سابق.

(١٢) متفقٌ عليه، انظر: اللُّؤلؤ والمرجان ١: ٤١٦، الحديث رقم: (١٢٤٥).

(١٣) انظر: الحديث رقم: (١١٩٩) من اللؤلؤ والمرجان، متفق عليه.

(١٤) مجمع الزّوائد ٤: ٩٨، مرجعٌ سابق.

(١٥) اللؤلؤ والمرجان ١: ٩، حديث رقم: (٥).

(١٦) صحيح البخاريّ ٨: ١٤٢، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، مرجع سابق.

(١٧) انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٢: ٧٠٧، حديث رقم: (١٦٧٦)، مرجع سابق.

(١٨) صحيح البخاريّ ٢: ٢٢٩، كتاب الصوم، مرجع سابق.

(١٩) انظر: مسند أحمد ٤: ١٨٢، مرجعٌ سابق.